Archive of SID

ادب عربی، سال ۱۲، شمارهٔ ۳، پاییز ۱۳۹۹
10.22059/jalit.2020.306262.612233
Print ISSN: 2382-9850//Online ISSN: 2676-7627
http://jalit.ut.ac.ir

Imperative-Didactic Speech Acts in Mourid Barghouti's Novel *I Saw Ramallah*

Roghayeh Rostampour Maleki[*]
Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, Alzahra University, Tehran, Iran
Zahra Aghajani
PhD Student of Arabic Language and Literature, Alzahra University, Tehran, Iran

Received: July 14, 2020; Accepted: September 1, 2020

Abstract

Speech act theory is one of the well-known theories in applied linguistics. By considering language in the context of human acts, it reveals what is left unsaid in the text and enables us to arrive at an interpretation of it. Based on this theory, one does not merely use words and sentences to communicate a meaning, but commits acts which are called speech acts. *I saw Ramallah* is an autobiographical novel by Mourid Barghouti, a Palestinian poet and writer. The events of the novel revolve around his return to Ramallah and Deir Ghassana after thirty years of exile to European and Arab countries. The article highlights and analyzes imperative-didactic speech acts of the novel in order to determine the author's purpose in using them. The importance of the research is evident in the fact that the novel contains emotional speech acts contained in interrogative speech acts in order to express the plight of Palestinians and their resistance against the Zionists. The research argues that two kinds of interrogative speech acts are used in the novel: direct and indirect. The direct speech acts are used by the characters in order to acquire information. The indirect speech acts, however, are used by the writer in accordance with the societal circumstances to express his goals. They are mostly used to express denial, anger, scolding, ridicule, sadness, regret, and surprise upon seeing what has happened and is happening to Ramallah. This type of speech act is prevalent in the novel since it is the most effective in expressing the writer's intentions and it highlights the communicative aspects of language, which are convincing, encouraging, and affecting the interlocutor. Thus, the writer uses indirect speech acts to reveal his psychological state, as he wants to influence the reader and stir the feelings of the Arab and Islamic nation so that they realize the issue of the Palestinian people and the right that is taken from them by the Zionists.

Keywords: I Saw Ramallah, Mourid Barghouti, Applied linguistics Speech act, Interrogative speech act.

[*] Corresponding author: r.rostampour@alzahra.ac.ir

www.SID.ir

Archive of SID

الأفعال الكلامية التوجيهية في رواية *رأيت رام الله* لمريد البرغوثي (الاستراتيجية الاستفهامية أنموذجا)

رقيه رستم‌پور ملكى*

استاذة مشاركة فى قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الزهراء، طهران، إيران

زهرا آقاجانى

طالبة الدكتوراه فى فرع اللغة العربية وآدابها، جامعة الزهراء، طهران، إيران

صص ٩٥-١١٨

تاريخ الاستلام: ١٣٩٩/٠٤/٢٤ هـ.ش، تاريخ القبول: ١٣٩٩/٠٦/١١ هـ.ش

الملخص

رأيت رام الله رواية سردية ذاتية لمريد البرغوثي الأديب الفلسطيني، تدور أحداثها فيما يرتبط بعودته إلى رام الله ودير غسانة بعد ثلاثين عاما من النفي والتشبث في البلاد الأوروبية والعربية. إذا ما أمعن القارئ النظر في الرواية، لاحظ تكثّف الاستراتيجية الاستفهامية فيها. ومن هذا المنطلق جاء البحث؛ ليعمل على المقاربة التداولية من خلال التركيز على الأفعال الكلامية التوجيهية الإستفهامية ومعرفة غايات الخطاب ومقاصده التي ترمي إليها الرواية. وأهمية البحث وضرورته تتجلى في أن الرواية تحمل في بنائها أفعالا كلامية تعبيرية تتمثل في الاستراتيجية الاستفهامية التي يتوخاها الكاتب؛ للتعبير عن مأساة الشعب الفلسطيني وصراعهم مع الاحتلال الصهيوني. ومن خلال المنهج الوصفي-التحليلي والإحصائي توصل البحث إلى نتائج: توفرت في الرواية الاستراتيجيتان: المباشرة والتلميحية. والأولى تتجلى قوتها الإنجازية الحرفية في الاستخبار والبحث عن معلومات حقيقية، يتوخّاها الكاتب في حوارات تجري بين المرسل والمرسل إليه، والثانية تندرج قوتها الإنجازية المستلزمة من المقام والسياق في الإنكار والنفي، والغضب، والتوبيخ، والتهكم والسخرية، والتحقير، والحزن والأسى، والحيرة والاستغراب. تتبوأ هذه الاستراتيجية في الرواية مكانة مهمة بوصفها هي الطريقة التي تُظهر قوة إنجازية وتأثيرية أكثر من غيرها؛ مما تشير إلى قصدية الكاتب، والجانب الاستعمالي والتواصلي للغة الذي يهدف إلى إقناع المتلقي واستمالته والتأثير فيه. فالكاتب ينوي بها إنجاز أفعال تعبيرية تفصح عن مكنوناته النفسية والسايكولوجية فيما يتعلق بالغربة والنفي والتشبث، ومدى شعوره بالذل والهوان تأثيرا في المتلقي وإثارة مشاعره واستصراخ الأمة العربية والإسلامية؛ ليدركوا تماما متاعب الشعب الفلسطيني والحق المستلَب منهم بأيدي الاحتلال الصهيوني.

الكلمات الدليلية: رواية رأيت رام الله، مريد البرغوثي، التداولية، الأفعال الكلامية، الأفعال التوجيهية الاستفهامية.

١. المقدمة

إنّ اللغة وسيلة التواصل الإنساني يعبّر بها الإنسان عما يدور في ذهنه؛ لتحقيق أهدافه ومقاصده. والتداولية (pragmatics) كنظرية تخاطبية تعنى باللغة والخطاب، وتدرس الجانب الاستعمالي والتواصلي للغة. قد استحدث هذا المصطلح تشارلز موريس (Moris)، وهي تمثل عنده جزءا من

*. الكاتب المسؤول: r.rostampour@alzahra.ac.ir

www.SID.ir

Archive of SID

نظرية العلامة التي تتكون من ثلاثة أجزاء: التركيب والدلالة والتداولية. انبثقت عن التداولية نظرية الأفعال الكلامية، وهي من أهم النظريات الفلسفية اللغوية التي ظهرت في منتصف القرن العشرين في إنجلترا على يد أوستن (Austin) من خلال محاضراته في جامعة أكسفورد، مشيرا إلى أن اللغة ليست وسيلة للوصف والإخبار فحسب، وإنما وسيلة للتأثير في العالم الخارجي وتغييره من خلال الأفعال الكلامية. ومن هذا المنطلق تكثّف اهتمام علماء اللغة واللسانيات بالتداولية ولاسيما الأفعال الكلامية باعتبارها تركّز على المقام والسياق وعناصره الثلاثة: المرسل والمرسل إليه والعناصر المشتركة كالعلاقة بين المتخاطبين والمعرفة المشتركة والظروف الاجتماعية العامة بما تثيره من الافتراضات المسبقة والقيود التي تؤطّر عملية التواصل.

ينطلق هذا البحث من تحديد إمكانية تحليل الخطاب الروائي ضمن المقاربة التداولية التي تهدف إلى التواصل والاتصال بقراءة الدلالات والمعاني في رواية *رأيت رام الله* للكاتب والشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي؛ بغية تحليلها ومعرفة غايات ومقاصد الخطاب التي ترمي إليها الرواية. ويتم ذلك بالتركيز على الاستراتيجية الاستفهامية التوجيهية بوصفها شغلت حيّزا واسعا في الرواية.

أما أهمية البحث وضرورته فتأتي في أهمية الدرس التداولي في معالجة النصوص الأدبية؛ لاهتمامها بالمتكلمين والمخاطبين والرسالة التي يقومون بإيصالها في خطاباتهم. يعود اختيار دراسة الخطاب الروائي (رأيت رام الله) دراسة تداولية إلى أن الرواية تحمل في بنائها بُعدا تواصليا وتفاعليا وحجاجيا، كما تنبني على البنية الحوارية المباشرة وغير المباشرة من وراء الأفعال الكلامية المتعددة وبخاصة الأفعال التوجيهية الاستفهامية التي احتلت حيزا كبيرا من الرواية، مما يثير الجدل والنقاش في ذات المتلقي، وفضلا عن ذلك يعبّر الكاتب عن قضية عالمية مهمة، وهي أن الكيان الصهيوني احتل أراضي فلسطين؛ فيعيش الشعب الفلسطيني في حالات من المعاناة والرعب والاضطهاد والصراع اليومي مع الكيان الصهيوني في الضفة الغربية وقطاع غزة.

تعتمد الدراسة على المنهج الوصفي-التحليلي والإحصائي، للرد على ما يلي من السؤالين: كيف تجلت الأفعال الكلامية الاستفهامية في رواية *رأيت رام الله*؟ كيف تمثّل الفعل التأثيري الناجم عن الأفعال الكلامية الاستفهامية في المخاطبين؟

ومن الملاحظ أن الرواية قد حظيت بعديد من الدراسات النقدية، ولكن الاستراتيجية الاستفهامية لم تُفرد بالبحث والدراسة. ومن هذه الدراسات يمكن الإشارة إلى ما يلي:

- *رواية رأيت رام الله لمريد البرغوثي دراسة في ضوء سوسيولوجيا الأدب* ليوني رحماوتي، جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية جاكرتا (سنة ٢٠١٦). يحاول البحث الكشف عن القضايا الثقافية السياسية الفلسطينية التي انعكست في الرواية وعن التأثير الذي تركت خلفية حياة الكاتب؛ مما أدى إلى كاتبة هذا النص الروائي.

www.SID.ir

Archive of SID

- *المحسنات اللفظية في رواية رأيت رام الله لمريد البرغوثي (الدراسة البلاغية)* لمرأة الصالحة، جامعة سونن أمبيل الإسلامية الحكومية سورابايا (٢٠١٨). تسعى الباحثة إلى تحليل المحسنات اللفظية ورصد أنواعها كالجناس وأنواعه والسجع والاقتباس، إلا أنها تفتقر إلى دراسة تحليلية معمقة؛ إذ إنها اكتفت بإيراد الأمثلة من الرواية فحسب دون تحليل، وفضلا عن ذلك لم تتطرق إلى جميع المحسنات اللفظية التي تستحقّ رسالة الماجستير.
- مقال«جدلية الأنا والآخر في رواية رأيت رام الله لمريد البرغوثي» لأكرم رخشنده نيا، مجلة الآداب لجامعة بغداد (٢٠١٨). تحاول الباحثة دراسة صورتي الفلسطيني والاسرائيلي في ضوء جدلية الذات والآخر في الرواية؛ باعتبارها تهتم بالذات الفلسطيني (الأنا)، والاسرائيلي (الآخر) الذي يقوم بالعنف والقهر ضد الذات.

إلا أن مجمل تلك الدراسات لم تأخذ إلا طابع النقد الكلاسيكي، ولم يتم الكشف عن الأبعاد التداولية والتواصلية للرواية، بيد أن هذه الدراسة تحاول أن تتجاوز دراسة المحتوى الدلالي والبلاغي، وتبحث عن علاقة العلامات اللغوية بمؤوليها ومدى تأثير الرسالة على المتلقي، وبالتالي تسعى إلى معالجة الأفعال الكلامية المتمثلة في الأفعال التوجيهية الاستفهامية.

٢.التداولية في اللغة

انتقى علماء اللغة واللسانيات مصطلحات مختلفة لكلمة كالتداولية والذرائعية والبراجماتية، وما إلى ذلك، ولكن يظهر أن التداولية أنسب معادلة عربية لها. وردت في مقاييس اللغة أنّ أصل التداولية من المعنيين: «أحدهما يدل على تحوّل شيء من مكان إلى مكان، فيقال: اندال القوم، إذا تحوّلوا من مكان إلى مكان، وكذلك تداوَلَ القومُ الشيءَ بينهم، إذا صار من بعضهم إلى بعض. والآخر يدل على ضعف واسترخاء» (ابن فارس، ١٤٠٤: ٣١٤/٢). كما جاء في اللسان «الدَّوْلةُ و الدُّولةُ: العُقْبة في المال و الحَرْب سَواء، وقيل: الدُّولةُ، بالضم، في المال، و الدَّوْلةُ، بالفتح في الحرب... وقيل: بالضم في الآخرة، وبالفتح في الدنيا، وقيل: هما لغتان فيهما، و الجمع دُوَلٌ ودِوَلٌ... دَالَت الأَيامُ أَي دارت، والله يُداوِلها بين الناس. وتَداوَلْتُهُ الأَيدي: أَخذته هذه مرة وهذه مرة» (ابن منظور، ١٤١٤ هـ. ق: ٢٥٢/١١).

٢-١. التداولية الاصطلاح

تعتبر التداولية فرعا من علم اللغة، وهي حلقة وصل بين علم النفس المعرفي والفلسفة التحليلية وعلوم التواصل. ويمكن القول إن الفلسفة التحليلية هي السبب في نشأة اللسانيات التداولية (صحراوي، ٢٠٠٥: ١٦ ومابعدها). وعلم الدلالة من أهم العلوم التي يمت بصلة وثيقة إلى التداولية، حيث يتصل بها في دراسة المعنى إلا أن هناك بعض الخلافات في مستويات المعنى، كما لها ارتباط وطيد بعلم اللغة

www.SID.ir

Archive of SID

الاجتماعي (sociolinguistics) وهو يشبه التداولية في الاهتمام بتأثير العلاقات الاجتماعية بين المتكلم والمخاطب في الكلام، كذلك يدرس أثر السياق في اختيار السمات اللغوية وتنوعاتها، وفضلًا عن ذلك علم اللغة النفسي (psycholinguistics) أيضًا يشارك التداولية في الاهتمام بقدرات المشاركين التي لها تأثير فاعل في الأداء مثل الانتباه والذاكرة والشخصية، وكذلك تحليل الخطاب (discourse analysis) وهو يشترك مع التداولية في تحليل الحوار (نخلة، ٢٠٠٢: ١٠ وما بعدها). ونتيجة لهذا التداخل بين التداولية والعلوم الأخرى لايوجد اتفاق على تعريف جامع ومانع للتداولية.

رغم كل هذا، يمكن القول إنّ التداولية تحاول دراسة استعمال اللغة في مختلف الطبقات المقامية، أي باعتبار اللغة «كلامًا محدّدًا صادرًا من متكلم محدّد وموجّهًا إلى مخاطب محدّد في مقام تواصلي محدّد لتحقيق غرض تواصلي محدد» (صحراوي: ٢٦). وقد عرض محمود أحمد نخلة تعريفًا موجزًا للتداولية يؤكد على تعريف صحراوي: «هو دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل؛ لأنه يشير إلى أنّ المعنى ليس متأصلًا في الكلمات وحدها، ولايرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى هي تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدّد (مادي، واجتماعي، ولغوي) وصولًا إلى المعنى الكامن في كلام ما» (نخلة، ٢٠٠٢: ١٤) وبهذه التعريفات يتضح الفرق بين التداولية وعلم الدلالة؛ حيث التداولية تهتم بدراسة علاقة العلامات بمؤوليها ومفسريها في السياق أي المتكلم والمخاطب وذلك من خلال إلقاء النظرة إلى الظروف التى تحكم على المتكلم والمخاطب في استعمال العلامات، بينما علم الدلالة يدرس العلاقات الكامنة بين الدال والمدلول دون أن يولي الاهتمام بالمتكلم والمخاطب. رغم الفروق الكامنة بين التداولية وعلم الدلالة، غير أن كليهما يدرس المعنى في العلامات والعلاقة الموجودة بينها.

٢-٢. نظرية الأفعال الكلامية

تُعدّ هذه النظرية من أهم النظريات الفلسفة اللغوية التي أرسى دعائمها الفيلسوف اللغوي الانجليزي جون أوستن (Austin) سنتي ١٩٥٢ و١٩٥٤ من خلال محاضراته خاصة «الكلمات والأفعال»، وهي تعدّ جذور النظرية نفسها حسب قول أوستن، وظهرت في منتصف القرن العشرين على يده بشكل رسمي ونهائي، عبر«محاضرات وليام جيمس» التي ألقاها أوستن في جامعة هارفارد الأمريكية سنة ١٩٥٥، مستهدفًا إلى تأسيس فلسفة اللغة، ولكن هذه المحاضرات أصبحت لبنة أولية للتداولية اللسانية؛ حيث بعد وفاته، قام طالبه أيرمسن (Urmson) بنشر المحاضرات على شكل كتاب سمّاه «كيف نفعل الأشياء بالكلمات؟» (ينظر: روبول وموشكار، ٢٠٠٣: ٢٩-٣١ وينظر: عبدالله الخليفة، ٢٠٠٧: ٣٩ وما بعدها).

www.SID.ir

Archive of SID

أكد أوستن على أننا حين نتلفظ بجملة ما، فإننا نقوم بثلاثة أفعال، هي فعل التلفظ، وفعل قوة التلفظ، وفعل أثر التلفظ: «العمل الأول هو العمل القولي (فعل القول/ الفعل اللغوي)، والمراد به «إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة»، وهو يشتمل على أفعال لغوية فرعية يمكن إدراجها في المستويات اللسانية المعهودة (أو الأفعال اللسانية على تعبير أوستين) أي: الفعل الصوتي(إنتاج الأصوات)، والفعل التركيبي (إخضاع الأصوات لنظام نحوي معين)، والفعل الدلالي(ربط الأصوات بالدلالة)، ولايمكن فهم المتكلم وقصده إلا من خلال السياق والمقام (صحراوي، ٢٠٠٢، ٤١). وأما الثاني فهو العمل المتضمن في القول، الذي يتحقق بقولنا شيئء محدد، وسمّاه أوستن «القوة الإنجازية» (روبول وموشكار، ٢٠٠٣، ٣٢)، والثالث هو عمل التأثير بالقول (الفعل الناتج عن القول/ الفعل التأثيري)، الذي يتحقق من جراء قولنا شيء ما» أي الكلام يؤدي إلى التأثير في مشاعر المتلقي وأفكاره (روبول وموشكار، ٣١ وما بعدها وصحراوي، ٢٠٠٥: ٤١ وما بعدها).

٢-٣. أنواع الأفعال الكلامية

قام أوستن بتصنيف الأفعال الكلامية على خمسة أصناف، منها: الإخباريات أو التقريريات، والوعديات أو الإلزاميات، التعبيريات أو البوحيات، الإعلانيات أو الإيقاعيات، والطلبيات أو التوجيهيات. والاستفهام يمكن اعتباره ضمن التوجيهيات (ينظر: أوستن، ١٩٩١: ١٧٤ وما بعد، وبوجادي، ٢٠٠٩: ٩٧ وما بعدها).

الأفعال التوجيهية «غرضها الإنجازي هو محاولة المتكلم توجيه المتلقي إلى فعل شيء ما أو التأثير عليه ليفعل شيئا معينا... واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات (القول)، وشرط الإخلاص فيها هو الرغبة الصادقة أو الإرادة» (حجي الصراف، ٢٠١٠: ٦٢). والمتكلم أو المرسل «يحاول تحقيق هذا الهدف بدرجات مختلفة تتراوح بين اللين وذلك بالإغراء أو الاقتراح أو النصح وبين العنف والشدة، وذلك بالإصرار على فعل الشيء» (الشهري، ٢٠٠٤: ١٥٨)، ويعتبر الاستفهام من الأفعال التوجيهية، له دور فعال في التفاعل التواصلي.

٢-٤. الاستفهام لغة واصطلاحا

الاستفهام في اللغة من «الفَهْمُ: معرفتك الشيء بالقلب. فَهِمَه فَهْماً وفَهَماً وَ هامة: عَلِمَه، وَهِمْت الشيء: عَقَلْتُه وعرَفْته...واسْتَفْهَمه: سأَله أن يُفَهِّمَه. وقد اسْتفْهَمَني الشيءَ فأَفْهَمْته وفَهَّمْته تفهيماً» (ابن منظور، ١٤١٤هـ: ٤٥٩/١٢). ويقول صاحب التعريفات: «استعلام ما في ضمير المخاطب» (الجرجاني، د.ت: ١٨)، وجاء في *المطول* «هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن» (التفتازاني، ١٣١٠: ٢٢٦). فيظهر أن الاستفهام هو الاستخبار وطلب فهم ومعرفة معلومة كانت غائبة عن ذهن السائل.

www.SID.ir

Archive of SID

الاستفهام من أهم آليات الاستراتيجية المباشرة في الخطاب، له فوائد كثيرة، منها: تحقيق الانسجام بين طرفي الخطاب، وإعطاء المعلومات من قبل المرسل إليه قد تفيد المرسل، وغيرهما. تتنوع آليات الاستفهام، فهناك سؤال مباشر وسؤال غير مباشر أو مستلزم (ينظر: الشهري: ١٣٢)، بعبارة أخرى يبدو أن المرسل تتوفر له إستراتيجيتان في توظيف الاستفهام: ١. الاستراتيجية المباشرة ٢. الاستراتيجية غير المباشرة (التلميحية). أما الأولى فهي التي يتوخاها المرسل؛ ليدل على قصده أو ينجز بها فعله اللغوي من خلال دلالتها الحرفية، بيد أن الثانية يتجاوز فيها دلالة الخطاب الحرفية. فليس الاستفهام هو القوة الإنجازية الوحيدة التي يريد المرسل نقلها إلى المرسل إليه، بل يرافقها فعل تعبيري آخر كالاستنكار والتهكم والنفي والإيجاب وما إلى ذلك. تتمثل كل من الاستراتيجيتين من خلال أدوات لغوية وآليات محددة يقوم المرسل بانتقائها وتوظيفها في الخطاب (ينظر: المصدر نفسه، ١١٧ و١٤٩). وفقا للتداولية «في بعض المقامات يمكن أن يتضمن الاستفهام قيما تعبيرية تجسد ذاتية المتكلم وتتيح نقل مختلف الانفعالات كالتفاجؤ والانزعاج والغضب إلخ...» (العذاري، ٢٠١٨: ١٣٣)، فبناء على ذلك، يمكن الحصول على استفهامات حقيقية تفترض حضور متلفظ ومخاطب، وكذلك استفهامات نخاطب فيها أنفسنا، ومعها ليس من الضروري الإجابة أصلا (المصدر نفسه). يعتبر استعمال الأسئلة الاستفهامية من الآليات اللغوية التوجيهية، باعتبارها توجّه المرسل إليه إلى خيار واحد، وهو ضرورة الإجابة عليها، كما يستعين المرسل بها للسيطرة على مجريات الأحداث، والسيطرة على ذهن المرسل إليه، وتسهيل الخطاب تجاه ما يريده المرسل لا حسب ما يراه المخاطب (الشهري، ٣٥٢).

٣. المباحث التطبيقية

٣-١. ملخص الرواية

رأيتُ رام الله للكاتب والشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي، رواية سردية ذاتية عن النفي والمنفيين، حازت على جائزة نجيب محفوظ للإبداع الأدبي عام ١٩٩٧. تمثل الرواية رحلة العودة إلى الوطن بعد ثلاثين عاما من الغربة والنفي. هذه الرواية تكمن قيمتها في طريقة سرد الأحداث الوقائعية التي تصوّر جليا دينامية متخيل البطل، بل تُظهر القوة الإنجازية والتأثيرية للأفعال الكلامية. تتمحور أحداثها حول عودة الكاتب إلى رام الله – وقريته دير غسانة –، كان قد غادرها قبيل حرب ١٩٦٧؛ ليتابع دراسته في القاهرة، قامت الحرب، وتم إدراج اسمه في قائمة اللاجئين، وصارت العودة بالنسبة له حلما وألما بعيد المنال.

والكاتب يمثّل اللاجئين الفلسطينيين الذين يعانون من الغربة والظلم والقهر الصهيوني، فيضطرّون أن يعيشوا في الغربة عيشة حافلة بالاستهانة والازدراء بلا انتماء إلى الوطن. هذه الرواية تحمل

www.SID.ir

Archive of SID

ذكريات المنفى المتعددة والتنقل بين المنافي الأوروبية والعربية وتجاربه الخاصة؛ فالكاتب يسرد الأحداث تارة بمشاعر نازح وتارة بمشاعر أسير وأخرى بمشاعر شهيد. يصوّر تفاصيل حياة الفلسطينيين والوجوه الإسرائيليّة السليطة واللهجة الفلسطينية الصامدة مع صمود أشجار الزيتون، كما يصوّر الحدود بين المدن الفلسطينيّة ونقاط التّفتيش ووقوف الفلسطيني ينتظر الموافقة على العبور من الجسر لساعات طويلة. قد يتطرق الكاتب إلى الشؤون السياسيّة؛ مما أدى إلى تأزم الأوضاع المعيشيّة في حياة الفلسطينيين المعلّقة بقيود الإقامة والرّحيل، حيث يشير إلى اتفاقيّة أوسلو التي يعتبرها شكلا من السيادة السّاخرة للفلسطينيين والسيادة الفعليّة المستحقّة للاحتلال الصهيوني، والتوسّع في بناء الدولة الزائفة على حساب أراضيهم. يغوص القارئ في هذه الرواية بخلط الأزمان بين القديم والحاضر، وبفتح العيون على الألم الصامت الذي يتبدّى بين السدود والحدود، وعلى الرغم من اللحظات التي تحمل نشوة الفرح في الرواية، إلا أنها تضم في متنها ألم المنفى دون العودة، وعدم الاستقرار في الوطن.

وهذه السيرة الذاتية ليست حكاية الكاتب وحده، بل سيرة الملايين الذين أدى الاحتلال إلى تشردهم في أنحاء العالم، منها: حكاية المسجونين، والمهزومين، والمنفيين، والهاربين، والمهرّبين، والمبعثرين خارج البلاد، كما أنها سيرة تحمل في طياتها ذكريات الطفولة وقصص ديرغسانة ووجوه جيرانها، ووجوه الأصحاب والأقارب من بقي منهم ومن رحل... إلخ (ينظر: رخشنده نيا، ٢٠١٨: ٤٥٢).

٣-٢. القرائن السياقية في *رأيت رام الله*

من أجل قراءة تداولية لرواية *رأيت رام الله* لابد من الإشارة إلى مجموعة من القرائن السياقية والإشاريات الزمانية والمكانية والشخصية التي يستحضرها السياق في الخطاب الروائي؛ إذ يتم من خلالها البحث عن الملابسات والظروف التي دفعت الكاتب يكتب النص الروائي؛ لذلك لابد من الإشارة إلى عناصر السياق الثلاثة:

المرسل (الكاتب) ← الرسالة(النص) ← المرسل إليه (المتلقي)

تبدأ الرواية بالسرد بضمير المتكلم (أنا)، والسارد (مريد البرغوثي) هو البطل داخل الرواية وإحدى الشخصيات الرئيسة فيها، حيث تمكّن من الدخول في حوار داخلي (الحوار مع الذات). ومن هنا يصبح المرسل إليه (القارئ) شاهدا على أفكار المرسل الذي يقدّم الأحداث. أما الحوارات فهي تبدو غير مباشرة حدثت في الزمن الماضي، ونقلها المرسل ودمجها في السرد الروائي. وإضافة إلى ذلك وردت الحوارات باللغتين الفصيحة والعامية. والحوارات غير المباشرة تأتي عادة عبر استذكار الشخصية للأحداث المنصرمة من حياته، أي عندما يكون السرد بصيغة الراوي الأنا.

www.SID.ir

Archive of SID

يتعرض المرسل (الكاتب) في روايته إلى قضية الانتماءات العرقية التي مزقتها الحرب، خاصة هزيمة حزيران ١٩٦٧ التي سببت في تشرده وابتعاده عن مسقط رأسه وملجئه رام الله، ولم يتمكن من العودة إلى مدينته إلا بعد ثلاثين عاما من التنقّل بين المنافي العربية والأوروبية. في هذا العام تخرّج مريد في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة القاهرة، واحتلت إسرائيل شاطئ الغربية، وحالت دون عودة الفلسطينيين؛ حيث يشير في الرواية إلى هذا الموضوع قائلا: «نجحت وتخرّجت. حصلت على ليسانس من قسم اللغة الإنجليزية وآدابها. وفشلت في العصور على جدار أعلّق عليه شهادتي» (البرغوثي، ٢٠١١: ٧). فجاء النص تحت هذا العنوان (رأيت رام الله)؛ ليحيل إلى الفلسطينين الذين تشردوا في مختلف أنحاء العالم، وماتوا كثير منهم في الغربة وقلوبهم تحن إلى الوطن عسى أن يلم شملهم تحت جناح الألفة والمحبة يوما من الأيام.

تتضمن الرواية أحداثا واقعية تتأرجح بين ثنائيات كالماضي والحاضر، والحرب والسلام، والتشاؤم والتفاؤل. المرسل لاينتج خطابه عبثا، وإنما ينتجه من أجل تحقيق هدف معين، وهو معالجة قضية فلسطين وما يمت بصلة إليها من التشتت والنزوح واللجوء والغربة في العالم بلا انتماء إلى الوطن، فرضته الحرب الصهيونية واغتصاب أرض فلسطين. المرسل يقدّم صورة حية للاجئين الذين يتمثلون في الشخصية الرئيسة في الرواية، أي مريد البرغوثي كاتب الرواية، الذي عاش مرحلة واقعية خارج الوطن. أما الثنائيات التي تم توظيفها في الرواية (في سياق الموقف)، فهي تتجلى في العوامل والظروف الاجتماعية والسياسية التي يعيش فيها الشعب الفلسطيني عامة والكاتب خاصة، فهو ينتقل من بلد إلى آخر؛ بحثا عن فرصة للعمل ولقمة العيش كالكويت وعمان والقاهرة وبيروت وبودابست. هو صورة كاملة للإنسان الفلسطيني الذي يعيش في واقع متشتت سواء أكان داخل الوطن أم خارجه. ومن الشخصيات الساندة للنص يمكن الإشارة إلى شخصية الوالد والوالدة ومنيف شقيقه وزوجته رضوى عاشور، والشخصيات الثقافية والأدبية كناجي العلي وغسان الكنفاني ومحمود درويش وغيرهم.

أما الإشاريات المكانية فهي تأخذ حيزا غير قليل في الرواية تكشف عن طبيعة الحياة وتنقّل الفلسطينيين من بلد إلى آخر، فيلاحظ تعدد الأمكنة بين رام الله والقاهرة وعمان والكويت والفنادق وغيرها. وعندما يعود إلى رام الله يعتريه استغراب وغربة جديدة، ويظل متشبثا بذكريات الماضي؛ لأن رام الله أصبحت بالنسبة لها مكانا للمستوطنين وفقدت قداستها. إن هذا التفاوت في استحضار المكان أدى إلى جذب التواصل والتفاعل مع الملتقي ضمن الأحداث.

يتحدد زمن الرواية منذ عام ١٩٦٧ مرورا بزمن البلاد الحالي، إلا أن الزمن في الرواية ديناميكي متداخل قائم على نسق سردي تقنية المونتاج، فالأحداث في تداخل مستمر وفي صعود وهبوط، ونلمح تقنية (flashback) التي تأخذنا إلى الماضي في ثنايا الرواية وتعود بنا إلى الحاضر، وهذا

www.SID.ir

Archive of SID

التشابك مستمر حتى نهاية الرواية. يبدو أن التذبذب في الزمان والمكان متلائم مع تذبذب الأحداث ونفسية الشخصية الرئيسة؛ لأنه يعيش في ألم وأسى كبير؛ لما ترك الاحتلال في نفسيته من آلام وأوجاع لا دواء لها حتى بعد العودة إلى رام الله. والهدف من وراء ذلك هو تحقيق التفاعل والتواصل بين المرسل والمرسل إليه؛ ليشعر بمدى معاناة المرسل وصعابه في النأي عن الوطن: «الغربة كالموت، المرء يشعر أن الموت هو الشيء الذي يحدث للآخرين، منذ ذلك الصيف أصبحت الغريب الذي كنت أظنه دائما سِواي...الغريب هو الشخص الذي يجدد تصريح إقامته. هو الذي يملأ النماذج ويشتري الدمغات والطوابع...لاتعنيه التفاصيل الصغيرة في شؤون القوم أو سياساتهم الداخلية لكنه أول من تقع عليه عواقبها. قد لايُفرحه ما يُفرحهم لكنه دائما يخاف عندما يخافون» (المصدر السابق).

٣-٣. الأفعال الكلامية التوجهية (الاستفهام) في *رأيت رام الله*

توزعت الأفعال الكلامية الاستفهامية في الرواية بين الاستراتيجيتين: الاستراتيجية المباشرة، والاستراتيجية التلميحية أو غير المباشرة. أما الأولى فهي تُعرف في التراث العربي بالاستفهام الحقيقي، وهو معنى من المعاني يطلب منه المرسل من المرسل إليه أن يُعلمه ما لم يكن معلوما عنده من قبل، ويفيده بمعلومات مطلوبة. والثانية يسمّيها البلاغيون بالاستفهام المجازي. هذا النوع لايرمي إثره المستفهم جوابا، وإنما يريد به إيصال معان أخرى.

هذا و، يتطرق البحث إلى معالجة الاستفهام باستراتيجيته المباشرة وغير المباشرة في الرواية كالتالي:

٣-٣-١. الاستراتيجية المباشرة

يتجلى هذا النوع من الاستراتيجية في الحوارات الصريحة والمباشرة بين المرسل والمرسل إليه. وتبدأ الأسئلة من البحث عن المعلومات، وتنتهي إلى تقديم المعلومات من لدن المرسل إليه ومن أمثلتها ما يلي: «ما هذه الأصوات في الخارج؟ انفجارات؟ هل هي مناورات الجيش المصري؟» (البرغوثي: ٦).

إذا ما تصفحنا الرواية لاحظنا أن الكاتب/ المرسل في قاعة الامتحانات، وإذا به يسمع أصواتا تشبه صوت الانفجارات خارج الكلية، ولايعرف ما هذه الأصوات. فمن القرائن السياقية في الخطاب يتضح للقارئ أن الاستفهامات هنا قوتها الإنجازية الحرفية تتجسد في طلب المعرفة والاستعلام عما يجهله الكاتب. وللعثور على الإجابة نلاحظ أن المرسل علم بسقوط المدينة رام الله، وهذا مؤشر إلى التشرد والتشبث في المنافي الأوروبية والعربية، وعدم العودة إلى مسقط الرأس.

ومن الملاحظ أن أداة الاستفهام (هل) تشير إلى أن السؤال مغلق، فلا بد للمرسل إليه أن يجيب على السؤال؛ لأن المرسل لم يترك له حرية اختيار الجواب، فالجواب أصبح منحصرا بين خيارين، هما نعم أو لا.

www.SID.ir

Archive of SID

يتذكر الكاتب خاله عطا أثناء انتظاره لانتهاء الإجراءات، ومروره من جسر الأردن، تلك الشخصية العنيدة المتشددة القاسية «معنى الحياة بالنسبة له أن يأمر فيُطاع»، ولكن لم يبق منه سوى الهشاشة والانكسار والهزيمة بعد المعركة: «– كيف وصلت إلى هنا يا خالي عطا؟ – لم نحارب. دمروا أسلحتنا ولاحقونا بالطائرات من أول ساعة» (المصدر نفسه، ١٣ وما بعدها).

والفعل الإنجازي هو الجملة الاستفهامية التي تتكون حمولتها الدلالية من قوة إنجازية حرفية، وهي الاستخبار وطلب المعرفة. والمرسل إليه يجيب على المرسل، ويقوم بتقديم معلومات متناسبة مع السؤال، ومرد ذلك الافتراضات المسبقة والمعلومات المشتركة بينهما؛ فكان خاله ضابطا في الجيش الأردني، وفي حرب ال٦٧ أرسلوه مع الكتيبة الكويتية للاشتراك في الحرب إلى جانب مصر، وهو الذي عاد من المعركة فقط، وهذا هو فكرة الهزيمة والانكسار ما يحزن القلب (ينظر: ص ١٤). وفضلا عن ذلك يمكن أن تتجلى قوته الإنجازية المستلزمة في التعجب والاستغراب؛ ولكن هذا لايعني أن في ذلك خروجا عن الاستفهام، بل التركيب لايزال يدل على وجود الاستفهام في أحد معانيه المجازية.

ومن الاستراتيجية المباشرة للاستفهام يلاحَظ حوار جرى بين الكاتب/ المرسل والجندي الصهيوني:«– أين تأخذني السيارة؟ –إلى مركز الحدود. الإجراءات كلها هناك» (م.ن،٢٠).

والمرسل في هذا المقام ينتظر معلومة غائبة عن ذهنه؛ لأنه يجهل المكان الذي تأخذ به السيارة، فينتظر فعلا إنجازيا تلفظيا من قبل المرسل إليه الذي يجد نفسه مضطرا للإجابة: (إلى مركز الحدود). والجواب الموجز من لدن المرسل إليه يبيّن للقارئ أن نوع العلاقة بين المرسل والمرسل إليه علاقة رسمية، فيكون الجواب هو الجواب الأنسب في مثل هذا الموقف، وبالإضافة إلى ذلك من حق المرسل إليه أن يرفض الرد؛ لأن المرسل في حالة عدم امتلاك السلطة.

أتت السيارة وأوصلته إلى مركز الحدود.دخل إلى صالة فيها الشرطة الفلسطينية والشرطة الإسرائيلية، ثم عبر البوابة، وجد نفسه أمام ضابط إسرائيلي، وهنا يبدأ السؤال: «– أين أذهب الآن؟ – إلى الضابط الفلسطيني طبعا» (م.ن، ٢٧).

وفي هذا الخطاب هدف المرسل من الفعل التوجيهي الاستفهامي هو جعل المرسل إليه يفعل شيئا ما، وهو إفادته بمعلومات مطلوبة. فلم يخرج الاستفهام عن قوته الإنجازية الحرفية. والمرسل إليه حاول تحقيق ما طلب منه المرسل ، وأجاب على السؤال بقدر مطلوب دون نقصان أو زيادة؛ مما يقتضي نوع العلاقة بين المرسل والمرسل إليه؛ فالعلاقة هي التي تحدد الاستراتيجية المناسبة لتجسيدها وردّة الفعل المتوقعة.

ثم انتهي المرسل من الإجراءات، ودفع ثمن التذكرة بالعملة الأردنية وركب الباص سائلا السائقَ: «– إلى أين نذهب الآن؟ – إلى استراحة أريحا» (م.ن، ٣٠).

www.SID.ir

Archive of SID

في هذا الخطاب التوجيهي، ينجز المرسل فعلا كلاميا استفهاميا، تتجلى قوته الإنجازية الحرفية في طلب المعرفة والاستخبار، وهكذا جعل المرسلَ إليه يفعل شيئا ما، أي يعطيه معلومات أراد المرسل معرفتها.

ومن الاستراتيجية المباشرة للاستفهام حوار المرسل مع المذيع في مقابلة أُجريت في مقرّ الإذاعة الفلسطينية في رام الله، وسأله المذيع:

> «ألسنا شعبا معجزة؟ شعبا مختلفا؟ وطنا مختلفا؟ – مختلفون عن من بالضبط! وعن ماذا! كل الشعوب تحت أوطانها وكل الشعوب تحارب في سبيلها إذا اقتضى الأمر. الشهداء يسقطون من أجل قضاياهم العادلة في كل مكان. المعتقلات والسجون مكتظة بمناضلي العالم الثالث والعالم العربي في طليعها. لقد عانينا وقدمنا تضحيات بلا حد. لكننا لسنا أفضل ولا أسوأ من الآخرين. بلادنا جميلة وكذلك بلدان الآخرين. علاقة الناس بأوطانهم هي التي تصنع الفروق فإذا كانت علاقات نهب ورشوة وفساد تأثرت بذلك صورة الوطن» (م.ن، ١٤٥وما بعدها).

والأفعال الكلامية الاستفهامية في خطاب المذيع تحمل أسئلة حقيقية، يقصد المرسل من طرح الأسئلة أن يتضح لديه موقف المرسل إليه من الأحداث التي تحدث في الوطن، وهو يرد إليها بإجابات مناسبة تقتضيها الأسئلة دون نقصان أو زيادة.

ويجري حوار بينه وبين أحد الجيران القدامى، يتحدث عن رفع علم فلسطيني صغير على سطوح مدرسة أو بيت وغيرهما كان يكلّف الشاب حياته، مع ذلك هم قدّموا الشهداء طول الانتفاضة من أجل رفع العلم. فيسأل الكاتب: «– يزعجك غياب الرومانسية من الأمر؟ – بل غياب السيادة الفعلية التي يعنيها العلم المرفوع. إسرائيل تحرمنا من السيادة حتى على وسائل المواصلات. وما تزال هي المرجع لنا في الأمور السيادية» (م.ن، ١٦٩).

تنحصر حمولة الجملة الإنجازية في قوتها الإنجازية الحرفية «الاستفهام»، والمرسل إليه كان عليه أن يرد بإجابة «نعم أو لا»، لكنه يقدم معلومات أكثر مما يقتضيه السؤال؛ لما تدعوه إلى ذلك انفعالاته النفسية تجاه قضية فلسطين.

هذا، والاستراتيجية المباشرة للاستفهام يتضح فيها القصد مباشرة دون عمليات ذهنية للاستدلال عليه. ويبدو جليا أن هذه الاستراتيجية وردت مبعثرة في ثنايا الرواية، حسب ما يستلزمه السياق؛ لما بُنيت الرواية على سرد الأحداث بضمير الأنا، والحوار مع الذات.

٣–٣–٢. الاستراتيجية التلميحية

www.SID.ir

Archive of SID

تكثّف اهتمام الكاتب بهذا النوع من الاستفهام، ومن هذا المنطلق يخرج الاستفهام عن غرضه الأصلي إلى أغراض تواصلية تفاعلية فرضتها المقامات، فلايخاطب المرسل الآخرين، بل يوجّه السؤال إلى نفسه؛ ليعبّر بها عن خلجاته النفسية وهواجسه تجاه الوطن المحتل المنكوب: «من وين الأخ؟ هل الصيف عندكم حار؟» (م.ن، ٧)

يتحدث المرسل عن الغربة ومدى ألمه، فانتقى فعلين كلامين بشكل غير مباشر يعبّر بهما عن قصده بما يغاير معنى الخطاب الحرفي؛ لينجز أكثر مما يقوله، أي يريد التعبير عن حزنه وألمه؛ مما أثر العالم الخارجي فيه، وجعله يعبّر عن مكنوناته السايكولوجية وعن موقفه ومدى كرهه بالغربة وسماع كلمة «النازحين». فالسؤالان صدرا إثر موقف إسرائيل؛ حيث منعت الشبّان من العودة إلى فلسطين: «إسرائيل تسمح لمئات من كبار السن وتمنع مئات الآلاف من الشبّان من العودة. وصار العالم يسمّينا نازحين» (م.ن، ٧). فالقوة المستلزمة فيها مقاميا هي تتجلى في التأسف والشعور بالغربة وبعدم الانتماء إلى الوطن؛ وما يدعم القوة الإنجازية في خطاب المرسل، الأفعال الكلامية التقريرية التي تتمحور حول الغريب الذي يسمّيه الكاتب «العنصر المندس»، و«الغربة كالموت... الغريب هو الشخص الذي يجدّد تصريح إقامته... هو الذي يعيش في اللحظة الواحدة أضغاثا من اللحظات...الغريب هو الذي يحتقرونه لأنه غريب أو يتعاطفون معه لأنه غريب. والثانية أقسى من الأولى» (م.ن، ٧ وما بعدها).

وبعد ثلاثين عاما من النفي والغربة الكاتب على الجسر، حيث يتهيأ؛ ليعبره عائدا إلى مدينته رام الله، ثم إلى قريته دير غسانة، بعد الإنهاء من الإجراءات اللازمة. وعلى هذا الجسر يستحضر حيّز الذاكرة: يسمّونه بتسميات مختلفة كجسر ألنبي جسر (سمي باسم الجنرال إدموند ألنبي)، عند عامة الناس، وجسر الملك عند الأردنيين، والجسر فقط عند جدة الكاتب ووالده وغيرهما ازدرارا واحتقارا له. هذا هو الجسر الذي عبر عنه في طريقه من رام الله إلى عمّان قبل ثلاثين عاما، وإلى مصر لاستئناف دراسته في جامعة القاهرة، والآن ينتظر حتى يمرّ منه إلى رام الله. بدأ يتأمل الجسر الذي طرأت عليه تغيّرات كثيرة. وللتعبير عن مكنوناته النفسية يطرح أسئلة: «هل سأجتازه بالفعل؟ تنشأ مشكلة طارئة في اللحظة الأخيرة؟ يعيدونني من هنا؟ يخترعون لي خطأ في الإجراءات المطلوبة؟ هل سأمشي بقدميّ على الضفة الأخرى؟» (م.ن، ٩)

يختار المرسل هنا الاستراتيجية التلميحية استجابة لدواع سياقية، تجعله يعدل عن استعمال الخطاب المباشر؛ للتعبير عن الخوف والقلق من عدم قبول العودة إلى رام الله، وصعوبة الانتظار ولهفة الحنين إلى الوطن.

وأخيرا سمح له الكيان الصهيوني أن يأخذ حقيبته ويقطع الطريق على الجسر نحو مدينة رام الله: «كيف استطاعت هذه القطعة الخشبية الداكنة أن تُقصي أمة بأكملها عن أحلامها؟ أن تمنع

www.SID.ir

Archive of SID

أجيالا بأكملها من تناول قهوتها في بيوت كانت لها؟ كيف رمتنا إلى كل هذا الصبر وكل ذلك الموت؟ كيف استطاعت أن توزعنا على المنابذ والخيام وأحزاب الوشوشة الخائفة» (م.ن، ١٤ وما بعدها).

يعبّر الكاتب عن شعوره تجاه هذا الجسر الصغير من خلال الأفعال الكلامية الاستفهامية؛ لتتجاوز عن دلالتها اللغوية الحرفية؛ وتصبح قوتها الإنجازية المستلزمة في إنجاز فعلين تعبيريين: التعجب، والاستنكار على الجسر وازدرائه، الجسر القليل الشأن والأمتار الذي جعل الناس يتشتتون أنحاء العالم. ومما يدعم القوة الإنجازية، الأفعال التعبيرية التي تلي هذه التساؤلات: «إنني لا أشكرك أيها الجسر القليل الشأن والأمتار. لستَ بحرا ولست محيطا حتى نلتمس في أهوالك أعذارا» (م.ن، ١٥). «ما هي استثنائيتها لو لم نكن فقدناها؟» (م.ن، ١١).

ولأهمية أرض فلسطين ينجز فعلا كلاميا يتمثل في الاستفهام، ومن ورائه يريد المرسل أن يوحي إلى المرسل إليه أن أرض فلسطين أرض عادية كسائر الأراضي والأتربة إلا أن الشعب الفلسطيني فقده عقب الاحتلال الصهيوني؛ حيث غدت أرضا استثنائية حملت في نفسها الإهانة والازدراء لانتزاعها منهم. والكاتب نفسه يرد على السؤال قائلا: «هي أرض كالأرض. نحن لانرفع لها الأغنيات لكي نتذكر الإهانة المتجسدة في انتزاعها منا. الإهانة تنغّص حياة المهانين. نشيدنا ليس للقداسة السالفة، بل لجَدارتنا الراهنة» (م.ن، ١١). والاستفهام هنا يحمل قوة إنجازية غير المباشرة، باعتبارها النفي وإنكار استثنائية الأرض.

وعند مرور الجسر يستذكر طفولته ووجوه الأحباب والأعداء، وما أصابته الأيام من الشيب والهزل مشيرا إلى أن نظارته الطبية كانت أقل سمكا وكان شعر رأسه أسود تماما؛ فيعتبر ذلك من عوارض الجسر، ثم يتساءل نفسه في حيرة واستغراب: «ها أنا أسير نحو أرض القصيدة. زائرا؟ عائدا؟ لاجئا؟ مواطنا؟ ضيفا؟ لاأدري! أهي لحظة سياسية؟ أم عاطفية؟ أم اجتماعية؟ لحظة واقعية؟ سريالية؟ جسدية؟ أم ذهنية؟» (ص ١٦).

كل هذه الجمل أفعال كلامية توجيهية استفهامية تحمل قوة إنجازية مستلزمة مقاميا، يمكن اعتبارها أفعالا تعبيرية ينجزها الكاتب؛ ليعبّر عن حيرته وتوتره النفسي تجاه أرضه فلسطين المحتلة؛ حيث تأثر بالمواقف والواقع الأليم، ووقعت عيناه عن كثب على ما كان يسمع عن فلسطين، من سيادة إسرائيل وهيمنته على الشعب، ورفرفة الأعلام الإسرائيلية، وغيرها؛ مما أدى إلى خيبة الأمل وتشظيه بعد أن كان ينتظر العودة إلى مسقط رأسه بكل شوق ولهفة.

يتكرر هذا الأسلوب مرة أخرى، والكاتب ينجز أفعالا إنجازية توجيهية خرجت من غرضها الأصلي إلى أغراض تواصلية فرضها المقام، وهو حالة التحيّر والتردد التي انهالت عليه: «الآن أمر من غربتي إلى... وطنهم؟ وطني؟ الضفة وغزة؟ الأراضي المحتلة؟ المناطق؟ يهودا والسامرة؟ الحكم

www.SID.ir

Archive of SID

الذاتي؟ اسرائيل؟ فلسطين؟ هل في هذا العالم كله بلد واحد يحار الناس في تسميته هكذا؟» (م.ن، ١٩).

هذه الأفعال الكلامية التوجيهية تجعل المتلقي يحسّ بمدى شعور الكاتب بالحيرة والغموض؛ لأن الوطن تغير، وأصبح محتلا بأيدي الصهيون؛ لذلك غمره الشعور بالتردد والتحير في تسمية هذه الأرض التي ابتعد عنها ثلاثين عاما. ومما يدعم هذه القوة الإنجازية أفعال كلامية تقريرية أخرى كالتالي: «في المرة السابقة كنت واضحا والأمور كانت واضحة. الآن أنا غامض ملتبس والأمور كلها غامضة ملتبسة» (م.ن، ١٩).

عندما يدخل الغرفة من أجل الإجراءات، بدأ يتأمل فيها، فإذا بالموتى يحضرون أمامه، كأنهم يفتحون الباب ويدخلون، كأن الغرفة هي الصيغة المكانية؛ لاستعادة الذكريات وحضور الموتى في ذاكرته، فتدخل جدته يستمع إلى تمتمات دعائها عند صلاة الفجر، يأتي أبوه بهدوئه الموجوع من الدنيا والراضي بها في الوقت نفسه، يدخل شقيقه منيف الذي ضربوا إلى الأبد أحلامه في رؤية وطنه رام الله، يدخل غسان الكنفاني الذي تم اغتياله، وناجي العلي، وغيرهم (ينظر: ص٢١ وما بعد)، لذلك ينتابه توتر وتشوش يجعلانه غائبا حاضرا في الوقت نفسه في الغرفة، وللتعبير عن مدى توتره ومعاناته ينجز أفعالا توجيهية استفهامية: «أكلُّ هذا التشوش لي؟ أكلُّ هذا الحضور والغياب للغائب؟ أكلُّ هذا الضجر المحاط بأملاح البحر الميّت؟» (م.ن، ٢٦).

ولايقصد من ورائها معرفة المعلومات، بل يريد التنفيس عن همومه وغمومه انهالت عليه من كل حدب وصوب وجعلته يغيب عن الزمان والمكان.

وفي موضع آخر يرافقه غياب الأحباء والأقرباء خاصة وفاة أخيه منيف، حيث يجعله لايفرح من صميم فؤاده وهو الآن في رام الله، فيداهمه الحزن والأسى على فراقهم: «لماذا في نافذة البهجة تداهمني ذاكرة المراثي؟ إنهم هنا. هل يطلّون معي من النافذة؟» (م.ن، ٤٧).

(لماذا) أداة الاستفهام تنحصر دلالتها الأصلية في السؤال عن سبب الشيء، ولكن المرسل لايقصد ذلك، بل يختبئ وراء الخطاب قصد آخر، وهو التعبير عن حزنه واشتياقه للراحلين، حيث ذهل بهول المصاب وموت الأحباء، وامتلأت نفسه بالأسى، فالاستفهام هنا قوته الإنجازية هي الحزن والأسى. و (هل) أداة أخرى للاستفهام، لم يستعملها المرسل للإجابة بنعم أو بلا، ولكن تنبعث منها مرارة الأحداث وموت الأحباء؛ لأنه فقد شقيقه منيف بغتة وهو يناهز الثانية والخمسين سنة، وموته هو الدوي الأعظم في حياة الأسرة، حيث يتذكر ذكرياته معه في دير غسانة، ويشعر بوجوده وبوجود الذين غادروا الحياة، كأنهم يمشون معه في أنحاء دير غسانة؛ لذلك يشير إلى الآية الكريمة: ﴿ولاتحسبن الذين قُتلوا في سبيلِ الله أمواتا بل أحياء عند ربِّهم يُرزَقونَ﴾ (آل عمران (٣-٤): ١٦٩). ثم يكرر التساؤلات: «هل أستطيع أن أكتب بأقلامهم على ورقهم الشديد البياض ما يخطر

www.SID.ir

Archive of SID

ببالي الآن؟» يطرح أسئلة من هذا النوع، ثم يجيب بنفسه إن الشهداء جزء من واقعنا، وليسوا خيالا وأوهاما كأفلام الكارتون، كما يشير إلى ثنائية رائعة: «وإذا كان الأحياء يشيخون فإن الشهداء يزدادون شبابا» (م.ن، ٤٧).

عندما يشاهد الكاتب الأعلام الإسرائيلية ترفرف فوق الأراضي الواضعة تحت الحكم الفلسطيني، يستهجن متسائلا: «ها أنا أدخل إلى فلسطين أخيرا. لكن، ما هذه الأعلام الإسرائيلية؟» (م.ن، ٣٠).

والفعل الكلامي التوجيهي ليس للاستخبار ومعرفة ما يجهله المرسل، بل تتمثل قوته الإنجازية المستلزمة مقاميا في التعجب والاستغراب من الوضع المؤسف الذي حلّ بأرضه فلسطين؛ فاستوطن الأغراب في بلده، ورُفعت أعلامهم على سماء أرضه، كما ينجز المرسل فعلا تعبيرا آخر يتجلى في شدة ألمه وأساه برؤية أعلام غير علم فلسطين، وبهذا الفعل الكلامي الاستفهامي يسعى إلى التعبير عن موقفه؛ ليؤثر في نفوس المتلقي ويقوم بتهييج مشاعره وإلهاب أحاسيسه.

ومن المواضع التي يلاحظ توظيف الاستفهام في قوته الإنجازية غير المباشرة: موقفه الحزين عندما يمر من الطرقات وهو في السيارة؛ يتفرج على الطريق والمشاهد، دون أن يجذبه شيء منها؛ لأن فلسطين تغيرت ملامحها، كانت خضراء مغطاة بالأشجار والزهور البريّة، يحدّث الناس والزملاء عن سحرها وجمالها، وها هي الآن صحراء بيداء:

> «ما هذه التلال؟ جيريّة كالحة وجرداء! هل كنت أكذب على الناس آنذاك؟ أم أن إسرائيل غيّرت الطريق الذي تسلكه سيارات الجسر وحوّلته إلى هذا الطريق الكالح...؟ هل قدّمت للغرباء صورة مثالية عن فلسطين بسبب ضياعها؟... هل كنت أصف للناس دير غسانة بتلال الزيتون المحيطة بها وأقنع نفسي أنني أصف كل تضاريس البلاد؟ أم أنني كنت أصف لهم رام الله، المصيف البديع الأخضر متوهما أن كل بقعة في فلسطين تشبه رام الله تماما؟ وهل كنت حقا أعرف الكثير من ملامح الأرض الفلسطينية؟» (م.ن، ٣٥ وما بعدها).

والكاتب يستغرب مما طرأ عليها من تحول وتغيّر، حيث يظل محتارا بين أمرين: هل تغيّر الطريق إلى رام الله أم هو الذي قدّم للناس صورة مثالية عن الوطن! فيلاحظ أن أفعالا كلامية استفهامية وظّفت في الخطاب، لكنها لاتنتمي إلى استراتيجية مباشرة، بل هي أفعال تعبيرية متمثلة في الاستفهام كالاستبعاد والإنكار والتعجب؛ لتدل على مدى أسى الكاتب وحزنه؛ مما أدى إلى تغيّر ملامح الوطن، في حين أنه كان يحلم العودة من المنفى والغربة إلى المكان الموعود، مدينة صباه وطفولته، فإذا به يرى رام الله جديدة، فم يعد المكان يعكس تجربة الذاكرة الأولى.

www.SID.ir

Archive of SID

وفضلا عن ذلك، يرى الكاتب المستوطنات في المناطق الفلسطينية، ينتابه استغراب وتعجب، حيث يستنكر على كل ما يتحدث عن المستوطنات؛ لأن العين ترى شيئا آخر، فيعتبر كل الإحصائيات والندوات والاقتراحات واتفاقيات، وما إلى ذلك سخيفة بلا معنى؛ ولذلك ينجز أفعالا كلاميا متجلية في الاستفهام باستراتيجيته التلميحية، تكمن قوته الإنجازية المستلزمة في التعجب والحيرة من جرّاء ما حدث في المدينة؛ وتغيّر ملامحها، فهو لم يعد يعرفها، ويظن أنه قد كذب على الناس حين كان يصف وطنه آية من الجمال والروعة والابتهاج، كما يمكن القول إن القوة الإنجازية غير الصريحة في الأفعال التوجيهية هنا الإثبات؛ لأنه كان يصف ديرغسانة ورام الله كما كانتا بكل تفاصيلهما وجمالهما، إلا أن اختلاف الليل والنهار غيّرها، ومحّى ملامحها القديمة، بل أصبحت مكانا للمستوطنات الإسرائيلية أكثر من أن تكون وطنا للفلسطينين.

يتحسر المرسل على الماضي وذكرياته وتغيّر ملامح الوطن خاصة رام الله، فيتساءل:

«هل يُعقل أن أذهب إلى الحِسْبة، سوق الخضار في رام الله، بعد غياب ثلاثين سنة فأجدها على حالها الذي كان رثًّا منذ ثلاثين سنة وكأن الباعة لم يغيّروا صناديقهم ولا ملابسهم ولا يافطات أسعارهم؟ وهل يُعقل أن أجد أرضيتها كما كانت تماما، كسطح المستنقع، لزجة، غامقة اللون، مغطاة بالبقايا والقشور والعفن الملوّن؟ وهل يُعقل أن أتأمل واجهات المباني المطلة على الشارع الرئيسي، فأجدها تكاد تشبه أرضية الحسبة؟» (م.ن، ١٧٦).

جميع الأفعال التوجيهية الاستفهامية في هذا الخطاب ردة فعل لرؤية الأطلال وفقدان ملامح المدينة. والقوة الإنجازية المستلزمة مقاميا هي النفي والإنكار؛ لأنه يعرف الزمان لن يعود، وغاب الماضي، وضاع عنه، وهكذا يعبّر عن انفعالاته النفسية بصيغة الاستفهام؛ لإثارة مشاعر المتلقي، وتقريبه من تجربته المؤلمة.

حين يرى الكاتب أبنية جميلة من الحجر الأبيض متلاصقة متكاتفة سكن فيها الإسرائيليون، يتساءل: «ما هو شكل حياتهم من الداخل يا ترى؟ من يكون سكان هذه المستوطنة؟ من أين أتوا قبل أن يؤتى بهم إلى هنا؟... هل يلعب أطفالهم الكرة وراء هذه الأسوار، وهل رجالهم ونساؤهم يمارسون الحب خلف هذه النوافذ؟ هل يفعلون ذلك والمسدسات على جنوبهم؟ والرشاشات هل يعلّقونها معبّأة وجاهزة على جدار غرفة النوم؟ على التلفاز لانشاهدهم إلا مسلّحين» (م.ن، ٣٦).

ومن خلال هذه الأفعال التوجيهية الاستفهامية، يقصد المرسل طلب المعرفة والاستخبار في الظاهر؛ لأنه لايعرف شيئا عنهم، ونوعية عيشهم، ولايعرف أين كانوا بالضبط قبل أن تأتي بهم إسرائيل إلى فلسطين، ولكن يمكن اعتبار هذه التساؤلات من الاستراتيجية التلميحية أي غير المباشرة، ومن هذا المنطلق تتجلى قوتها الإنجازية المستلزمة في جذب الانتباه وإثارة التفكير في المتلقي؛

www.SID.ir

Archive of SID

ليجعله يبحث عن تاريخ فلسطين وإسرائيل، وما يكمن وراء استيطان الإسرائيليين في المناطق الفلسطينية، أي تنصبّ عناية المرسل على وراء ما يقصده بالظاهر، وهو التعجب واستبعاد الحب والوئام بين الإسرائيليين؛ لأن المرسل لايعرف عنهم سوى سلطة وقوة جبارة ضد الشعب الفلسطيني، حيث احتلوا الأراضي الفلسطينية، وسببوا في التشتّت والتشرّد للشعب؛ لذلك يستبعد أن يكون بينهم حب ومودة أصلا.

وفي موضع آخر يشير الكاتب إلى اتفاقية أوسلو ما أدّى إلى الذل والخذلان للشعب الفلسطيني، وأصبح الكيان الصهيوني يستفيد من هذه الاتفاقية؛ حيث زادت من عدد المستوطنات في فلسطين، رام الله ودير غسانة: «كيف تركناهم يقيمون كلّ هذه المدن؟ القلاع؟ الثكنات؟ سنة بعد سنة؟» (م.ن، ٣٨).

وتتخذ الأسئلة هنا دلالات غير مباشرة، وتتجلى قوتها الإنجازية المستلزمة في التعجب وشدة الغضب والاستياء من جهل المفاوضين وتدبرهم الناعم فيما يتعلق باتفاقية أوسلو، ويأتي بتشبيه طريف للمستوطنات والمناطق الفلسطينية، حيث يشبه المستوطنات بنسيج السجادة، والمناطق الفسطينية بالنقوش المتناثرة: «عليها بعض النقوش متناثرة هنا وهناك هي كل ما تبقّى لنا من فلسطين» (ص ٣٩)، وبهذا التشبيه يشير إلى سيطرة إسرائيل على فلسطين والشعب الفلسطيني، حيث لم يبق منهم إلا عدد ضئيل، وهم أحيطوا بالأيدي الصهيونية من كل حدب وصوب، والقدس ممنوع الدخول إليها لا ماشيا ولا راكبا ولا طائرا بجناحين.

يعود الكاتب إلى وطنه بآمال وأمنيات مفعمة بالفرح والسعادة، عسى أن يستقر في الوطن، ويستعيد ذكريات الطفولة، لكنه حين يدخل مسقط رأسه، يباغته تغيّر الوطن والسيادة، فالغرباء هم أصبحوا أسيادا على الوطن وتضاريسه، هم الذين يحكمون على الناس، هم الذين يسمحون للشعب الفلسطيني الدخول والخروج... إلخ؛ ولذلك بدأ يتساءل: «ما الجديد هنا؟ مازال الآخرون هم الأسياد على المكان؟ هم يمنحونك التصريح. هم يدققون أوراقك. هم يفتحون لك الملفات. هم يجعلونك تنتظر» (م.ن، ٤٨).

يقصد المرسل من خلال الخطاب التوجيهي الاستفهامي الإنكار؛ لأنه يرى أن الاحتلال مازال يسيطر على الناس، ولم يحدث أي تغيّر في البلاد، بل تدهورت الأوضاع؛ حيث انتشرت المستوطنات الإسرائيلية في كل أرجاء الضفة. فالقوة الإنجازية غير المباشرة للاستفهام تتجلى في الإنكار والتأسف على ما انهال على الوطن من المصاعب والمتاعب، والسبب كله الاحتلال الصهيوني، وسكوت الحكام العرب وخمودهم تجاه القضية الفلسطينية.

www.SID.ir

Archive of SID

وفي موضع آخر يتحدث عن الحدود التي لاتشبهه بشيء في القارات الخمس: «هل أنا متعطش لحدودي الخاصة؟ أنا أكره الحدود، حدود الجسد، وحدود الكتابة، وحدود السلوك، وحدود الدول. هل أريد حقا حدودا لفلسطين؟ وهل بالضرورة ستكون حدودا أفضل؟» (م.ن، ٤٨).

ولم يعد قصد المرسل بصيغة الاستفهام هنا معرفة معلومة كانت غائبة عن ذهنه ، بل أصبح وسيلة لإيصال رسالته إلى المتلقي، وهي أن الشعب الفلسطيني أصبح تحت قيادة إسرائيل؛ فهي التي تفرض هيمنتها عليهم، من الهجوم والتفتيش والعنف... إلخ. ومريد هنا يمثل الشعب الفلسطيني، ويستبدّ الكيان الصهيوني بجسده، فعودته إلى رام الله مشروطة بموافقة الإسرائيلي ومؤقتة دائما، حتى إن حقه للعودة أصبح موضع جدل، كما يتدخل المحتلّ في أوقات ذهابه وإيابه، فالسلطة الإسرائيلية هي التي تملك أن تحرّك جسد الكاتب على خريطة فلسطين التاريخية؛ لذلك يرفض في نفسه الحدود. فالقوة الإنجازية المستلزمة مقاميا للاستفهام تتجلى في الإنكار والنفي. «كيف نفسر اليوم، بعد أن كبرنا وعقلنا، أننا في الضفة الغربية عاملْنا أهلنا معاملة اللاجئين؟... من يعتذر لهم؟ من يعتذر لنا؟ من يفسّر لمن هذا الارتباك العظيم؟» (م.ن، ٥٠).

والاستفهام خرج عن قوته الإنجازية المباشرة؛ ليدل على القوة الإنجازية المستلزمة، وهي التوبيخ واللوم على نفسه وعلى الذين سمّوا إخوانهم وأهلهم لاجئين أو مهاجرين، الذين طردتهم إسرائيل من مدنهم وقراهم الساحلية عام ١٩٤٨، وانتقلوا مضطرين من مكان إلى آخر، وأقاموا في مدن وقرى جبلية، والكاتب سمع هذه المفردات منذ نعومة أظفاره، وألفها وتعود على استعمالها دون أن يسأل عن معناها ودلالتها؛ لذلك أصبح يندم على استعمالها وهو استوعب الأمر بعد أن كبر، والآن يلوم الكبار: «كيف لم ينهرنا الكبار عن استخدامها؟» (م.ن).

في موضع آخر يستهزي الكاتب برجال السياسة، الذين يسمّون أنفسهم النقاد والسياسيين، لكنهم لايعرفون عن السياسة شيئا: «هل من الممكن إعفاء الخاسر والمقهور من السياسة؟ هل يمكن إبعاده عنها؟ كيف يقتنع النقاد الفرانكوفونيون والأنجلوساكسونيون العرب بذلك؟» (م.ن، ٥٣).

ويقصد الكاتب من وراء الاستفهام الرفض والتهكّم؛ إذ يقوم بتحقير حكام العرب ويضحك منهم؛ لأنهم يدّعون السياسة والإحاطة والإلمام بها في الحديث فحسب، بيد أن مواقفهم تُظهر غير ذلك؛ لذلك يشير إلى أنهم لم يتعلموا الفنّ جيدا، ولم يتعرفوا على السياسة جيدا؛ فهم يتحدثون عنها كأنها وقائع، ولم يعرفوا الفرق بين الوقائع والواقع الذي يشمل كل العواطف والأحاسيس الإنسانية ومواقف البشر، ويشمل الزمان بماضيه وحاضره ومستقبله. يتحدثون عنها بصفتها قرارات الحكومات والأحزاب والدول فقط أو كنشرة أنباء الساعة الثامنة فقط. وهكذا ينجز المرسل أفعالا إنجازية بصيغة الإخبار في الرد إلى أسئلته تراود أفكاره؛ ليستهين بالحكام العرب وبتصرفاتهم المخزية (ينظر: م.ن، ٥٣).

www.SID.ir

Archive of SID

عندما وصل الكاتب إلى دير غسانة، كانت هناك لقاءات وحوارات مع الأهالي، وسوف تكون هنا أمسية شعرية أمام الجمهور. هو بدأ يتذكر أمسياته في تونس وفي المغر، لكن هذه الأمسية مختلفة ومحيّرة: «هل يريدون الاستماع للشعر فعلا؟ أم أنهم يبادلونني تحية العودة بالسلامة ويقومون ما تقتضيه الأصول؟» (م.ن، ٩٥).

ومن الملاحظ أن الاستفهام في خطاب المرسل تجاوز إلى الإستراتيجية التلميحية؛ لأن المرسل يريد التعبير عن حيرته وتردده فيما يرتبط بمواقف الناس تجاهه؛ حيث لايعرف أن الناس يحبون استماع أشعاره أم يريدون الترحيب به حسب العادات والتقاليد الشعبية؟!؛ ولذلك انتابه شيء من التحير والتردد في ذاته.

كان المرسل يغمره سرور وفرح كبير في الأمسية التي شارك فيها أهل دير غسانة، ولكن هاجس حال دون هذا السرور، هاجس أكثر قسوة ووجعا بالنسبة له: «ما الذي تعرفه دير غسانة منك يا مريد؟ ما الذي يعرفه منك أهلك الآن؟ ما الذي يعرفونه مما مر بك ومما شكّل وجدانك، معارفك، اختياراتك، وصفاتك الإيجابية والسلبية طوال ثلاثين سنة عشتها بعيدا عنهم؟ ماذا يعرفون عن لغتك؟ ...وإذا عرفوا عاداتك، هل سيقرّونها؟ موقفك من فكرة العائلات كلّها، ومن المرأة ومن الأدب والفن والسياسية؟... فهل يتذكر الكثيرون مفردهم؟» (م.ن، ١٠١وما بعدها).

يبدو أن المرسل يجيب على الأسئلة التي يطرحها كالتالي: «يحسبون أنك لم تأسف لقطع شجرة التين إلى هذا الحد. لايعرفون رضوى وتميم. لايعرفون ما الذي جدّ عليك في غيابهم. أنت لم تعد ابن الأول الإبتدائي الذي كانوا يشاهدونه من زمان، يقطع هذه الساحة في طريقه إلى جدول الضرب وحصة الاملاء» (م.ن، ١٠٢).

وهذه الأفعال الكلامية تعبر عن موقف المرسل تجاه النفي عن الوطن، والابتعاد عن الشعب؛ حيث يتولد من الغربة نسيان دير غسانة وأهاليه وكل ما يتعلق بهم من العادات والتقاليد والمواصفات وما إلى ذلك. فالاستفهام هنا تصاحبه أفعال تعبيرية، منها: النفي والحزن والأسى على الغربة واليأس والتشاؤم؛ مما أدى إلى تغيير في الشخصيات والأماكن والأزمنة؛ كأنه أصبح غريبا عنهم، وإن عاد إلى أحضان الوطن، ولكن الغربة ترافقه أينما يكون، فكأنه أصبح متشائما أن ينسج وشائج بينه وبينهم، كما يرى أنهم أيضا تغيروا: «ألم يتغيّروا هم أيضا؟ أمّ طلال على غير عادتها تتحدث في السياسة. يقولون لي إن كثيرا من شباب البلاد متحمسون لحماس... عاشوا زمنهم هنا وعشت زمني هناك. هل يمكن رتق الزمنين؟ وكيف؟ لابد من ذلك. هل هو ممكن؟ هل هو مستحيل؟» (م.ن، ١٠٢).

ومما يثير استغراب المرسل هو رؤية بعض الناس إلى مظاهر الحياة، التي تثير استفزاز المواطنين العاديين، كنوعية البيوت للوزراء والوكلاء والمدراء، والسيارات الفخمة التي يركبونها، ومظاهر سيادتهم

www.SID.ir

Archive of SID

الشخصية التي لاتتلاءم مع غياب سيادتهم الوطنية ولا مع مظهر سيادة الفلسطينين ضمن ترتيبات اتفاقية أسلو العجيبة، وهكذا أصبحت السيارة عند البعض منزلة شخصية وعند البعض الآخر مجرد حذاء يستخدم لقطع المسافات ونقل صاحبه من مكان إلى آخر: «فهل يستوي الذي في سيارته بالون هوائي والذي تخلو سيارته من البالون؟ وهل يستوي الذي لديه سائق والبائس الذي يسوق سيارته بنفسه؟» (م.ن، ١٣٢).

والاستفهام تتأسس قوته الإنجازية الحرفية على النفي والإنكار والتعجب. يتوخى هذه الاستراتيجية للإشارة إلى زخارف الحياة ومظاهرها التي ينخدع بها بعض الناس، ومما تجدر الإشارة إليه أنه لايريد أن يتحدث عن فلسطين كأنها قديسة ونور، بل يرى فيها إيجابيات وسلبيات كسائر الأمم والشعوب، وهذا الخطاب يدل على صدق المشاعر والنزاهة عنده في سرد الأحداث.

وفي مكان آخر يتحدث عن الكتّاب الذين يريدون ترجمة كتبهم إلى الإنجليزية، قائلا: «في أيامنا العجيبة هذه، أصبح الكاتب العربي يلهث وراء فرص الترجمة (للغات الأجنبية تحديدا) لترتفع قيمته المحلية! كأنه يريد أن يقرأه الإنجليز ليعرفه العرب! المضحك هو المحزن. هل يحدث ذلك يا ترى عند غيرنا من الشعوب الآن؟» (م.ن، ١٤٤).

والكاتب يريد أن ينجز أفعالا تعبيرية من وراء الاستفهام، وهي التهكم والسخرية وإبراز التأسف على أحوال هؤلاء الأشخاص الذين يفكرون تفكيرا سطحيا، فيُذللون أنفسهم للوصول إلى مناصب وأهداف يرون فيها قيمتهم ومكانتهم المرموقة.

وفي موضع آخر بدأ يلوم القرار الحكومي في لبنان، بأنّه وفقا لهذا القرار يُمنع الفلسطينيون المقيمون في المخيمات من العمل في ٨٧ مهنة، وبإمكانهم جمع القمامة وتلميع الأحذية فقط، والذي يُسمح له بالسفر من لبنان لايُسمح له بالعودة إليه مرة أخرى: «هل يُعقل أن ينطبق هذا على أكثر من ربع مليون لاجئ فلسطيني الأصل، منهم آلاف وُلدوا في لبنان؟» (ص ١٦٧).

والاستفهام هنا يحمل قوة إنجازية مستلزمة مقاميا، وهو استفهام إنكاري توبيخي، يريد بها المرسل أن يلوم ويوبّخ السلطات على هذا القرار، مع ذلك، يعترف بأن بعض الفلسطينيين أخطأوا في شأن لبنان، وأبناء المخيمات هم الذين يسددون الثمن يوميا، ثم يستغل من قوله في الدفاع عن الشعب الفلسطيني، وينجز فعلا تعبيريا يتجلى في التمني: «ليت كل من أخطأ بحق فلسطين يسدد الثمن أيضا» (م.ن، ١٦٧).

ويشير إلى هزيمة حزيران ١٩٦٧، ومدى شعوره بالألم، حيث يتضح أنه لم يعد يمكنه أن يرى رقم الـ٦٧ هذا إلا مرتبطا بالهزيمة: «هل هزيمة حزيران عقدة نفسية عندي؟ عند جيلي؟ عند العرب المعاصرين؟» (م.ن، ٢٠٦).

www.SID.ir

Archive of SID

ويختم الكاتب سيرته الذاتية بشكوى، حيث يسأل سؤالا ولكن لم تجد له الأيام جوابا عليه حتى الآن: «ما الذي يسلب الروح ألوانها؟ ما الذي، غير قصف الغزاة، أصاب الجسدْ؟» (م.ن، ٢٢٠).

ويُعزى الاستفهامان باعتبارهما فعلين إنجازيين إلى شدة حزن الكاتب وأسفه على مرور الأيام، وموت الحياة الزاخرة بالسعادة والانتعاش، ومدى تحيّره وتردده في الإجابة على السؤالين، كأنه يرى أن هناك أشياء أخرى غير قصف الاحتلال حطّم حياة الفلسطينيين، وجعلهم يتشتتون ويتشردون في أنحاء العالم، فالجسد هنا يرمز الجسد الفلسطيني الجمعي الذي تعرض للتشتت والعدوان، ومريد جزء من هذا الجسد الجمعي الذي تشرّد في المنافي الأوروبية والعربية خلال ثلاثين عاما، ولكن حلم العودة كان ينعش الروح في قلبه، ولكن عندما عاد إلى رام الله ودير غسانة، شعر بالغربة أيضا ويرى نفسه متشظيا بين الزمن الحاضر والماضي وبين الأماكن وأطلالها، فلم تعد المدينة كما كانت، زالت الطفولة وزمانها، ضاعت الذكريات أفراحها وأتراحها، ولم يبق من فلسطين سوى نقوش مبعثرة على نسيج السجادة؛ ولذلك لاتأتيه فرحة وسرور من صميم الفؤاد، بل يعتريه هم وغم على الماضي والحاضر المستلَب والمستقبل المجهول. فالرواية منذ بدايتها حتى النهاية توحي للمتلقي نوعا من الحزن، والتحير والإبهام، والانتظار؛ فالكاتب عند العودة يقف على جسر النبي، وينتظر السماح من قبل الإسرائيلي، وفي نهاية الرواية، سيعود إلى عمان، وسينتظر تصريح ولده تميم، عسى أن يعود معه إلى رام الله، ويراها. بالإضافة إلى ذلك العنوان أيضا فيه مؤشرات للتشرد وعدم الاستقرار، التيه في المنفى والغربة؛ لأن مسار النكبة المتواصل من محاصرة وتهجير إلى احتلال المكان يؤدي إلى تمزق نسيج المجتمع الفلسطيني؛ مما أدى إلى الشعور بالتيه والنفي في الذات وخارجه. ومن الوسائل اللغوية لهذه الدلالة توظيف الفعل الماضي «رأيت» بدلا من انتقاء اسم آخر للعنوان، أنا في رام الله مثلا... إلخ.

٤. النتيجة

وفي خاتمة البحث يمكن أن تسجل النتائج التالية:

توزّعت الأفعال الكلامية التوجيهية المتمثلة في الاستفهام باستراتيجيتين: الاستراتيجية المباشرة، والاستراتيجية التلميحية (غير المباشرة). أما الاستراتيجية الأولى فهي تجلّت قوتها الإنجازية الحرفية في الاستخبار وطلب معرفة معلومات غائبة عن ذهن الكاتب/ المرسل. هذه الاستراتيجية يتضح فيها القصد مباشرة دون عمليات ذهنية للاستدلال عليه. ويبدو جليا أنها تبعثرت في حوارات تجري بين الكاتب والآخرين من الأصدقاء والجيران وغيرهم، فلم يعتمد عليها الكاتب في خطابه إلا قليلا؛ مما يؤكد أن الرواية بُنيت على سرد الأحداث بضمير الأنا، والحوار مع الذات.

www.SID.ir

Archive of SID

والاستراتيجية التلميحية للاستفهام، توخّاها الكاتب لتحقيق مقاصد وأهداف معينة ترمي إليها الرواية، فتكمن قوتها الإنجازية المستلزمة من السياق في الإنكار والنفي، والتوبيخ واللوم، والتهكم والسخرية، والتحقير، والحزن والأسى، والحيرة والتردد، والحنين إلى الماضي وأيام الطفولة.

ويظهر أن هذه الاستراتيجية قد شغلت حيزا واسعا في الرواية. في الواقع انتقاها الكاتب؛ ليحقق في خطابه أقصى تأثير في المتلقي؛ لأنه يريد إثارة مشاعر المتلقي واستمالته إلى القضية الفلسطينية وما يحلّ بشعبها من ظلم وقمع ودمار وخراب بأيدي الاحتلال الصهيوني، واستصراخ الأمة العربية والإسلامية؛ ليدركوا قضية الشعب الفلسطيني والحق المستلَب منهم، وفضلا عن ذلك ينوي بها إنجاز أفعال تعبيرية تفصح عن مكنوناته النفسية والسايكولوجية فيما يتصل بالغربة والنفي، ومدى شعوره بالذل والهوان في البلاد الأوروبية والعربية.

ومن الملاحظ أن الاستراتيجية التلميحية للاستفهام تتلاءم مع قصدية الكاتب والجانب الاستعمالي والتواصلي للغة؛ لما تضم تقنية الحجاج والإقناع بشكل غير مباشر، حيث تقوم بإثارة التفكير وتنشيط وجذب الانتباه لدى المتلقي؛ بل تُظهر هذه الاستراتيجية القوة الإنجازية والتأثيرية أكثر من غيرها في إقناع المتلقي واستمالته والتأثير فيه؛ لينجز فعلا مطلوبا من وراء هذه الرسالة.

المصادر

القرآن الكريم.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد (٢٠٠٨)، *معجم مقاييس اللغة*، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ابن منظور، محمّد بن مكرم (د.ت)، *لسان العرب*، بيروت: دار صادر، الطّبعة الثّالثة.

أوستن، جون (١٩٩١)، *نظرية أفعال الكلام العامة*، ترجمة عبدالقادر قينيني، إفريقيا الشرق.

البرغوثي، مريد (٢٠١١)، *رأيت رام الله*، المغرب: الدار البيضاء، الطبعة الرابعة.

بوجادي، خليفه (٢٠٠٩)، *في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم*، الجزائر: بيت الحكمة.

التفتازاني، سعدالدين (١٣١٠هـ)، *المطول على لتلخيص*، مطبعة سندة.

حجي الصراف، علي محمود (٢٠١٠)، *الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالة ومعجم سياقي*، القاهرة: مكتبة الآداب.

الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف (د.ت)، *معجم التعريفات*، القاهرة: دار الفضيلة.

رحماوتي، يوني (٢٠١٦)، *رواية رأيت رام الله لمريد البرغوثي دراسة في ضوء سوسيولوجيا الأدب*، شهادة درجة الجامعة الأولى، الدكتور محمد أديب مصباح الدين، جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية جاكرتا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

رخشنده نيا، اكرم (٢٠١٨)، «جدلية الأنا والآخر في رواية رأيت رام الله لمريد البرغوثي»، الآداب، العدد ١٢٦، صص ٤٣٦-٤٥٧.

روبول، آن وموشلار، جاك (٢٠٠٣)، *التداولية اليوم علم جديد في التواصل*، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة لطيف زيتوني. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

www.SID.ir

Archive of SID

الشهري، عبدالهادي بن ظافر (٢٠٠٤)، *استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية*، دار الكتب الجديدة.

الصالحة، مرأة (٢٠١٨)، المحسنات اللفظية في رواية رأيت رام الله لمريد البرغوثي(الدراسة البلاغية)، شهادة الدرجة الجامعة الأولى، الدكتور الحاج حارس الدين، جامعة سونن أمبيل الإسلامية الحكومية سورابايا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

صحراوي، مسعود (٢٠٠٥)، *التداولية عند علماء العرب تداولية لظاهرة «الأفعال الكلامية» في التراث اللساني العربي*، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

عبدالله الخليفة، هشام (٢٠٠٧)، *نظرية الفعل الكلامي*، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

العذاري، فدوى (٢٠١٨)، *الدلالي والتداولي في العمل اللغوي (الاستفهام نموذجا)*، المنشورات الجامعية بمنوبة.

نحلة، محمود أحمد (٢٠٠٢)، *آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

References

The Quran.

Abdullah Al-Khalifa, H. (2007). *Theory of Verbal Action*. Beirut: Lebanon Publishers Library. [In Arabic].

Al-Taftazani, S. (1310 A.H.). *Al-Mutawil*. Sindah Press. [In Arabic].

Al-Athari, F. (2018). *Al-Dilaliu wal-Tadawuliu fi al-Eamal al-Lighawii (al-Aistifham Namudhajaan*. Manouba University Publications. [In Arabic].

Austin, J. (1991). *The General Speech Act Theory: How to get Things Done with Speech.* (A. Q. Qannini, Trans.) Morocco: East Africa. [In Arabic].

Barghouti, M. (2011). *I Saw Ramallah* (4th ed.). Casablanca. [In Arabic].

Boujadi, K. (2009). *Fi al-Lisaniat al-Tadawuliat mae Muhawalat Tasiliat fi al-Dars al-Arabii al-Qadim.* Algeria: House of Wisdom. [In Arabic].

Hajji al-Sarraf, A. (2010). *Al-afeal al-Injaziat fi al-Earabiat al-Mueasirat Dirasat Dilalat Wamaejam Siaqiin*. Cairo: Library of Arts. [In Arabic].

Ibn Faris, A. (2008). *Lexicon of Language Standards*. Beirut: Dar al-Ahyaa. [In Arabic].

Ibn Manzoor, M. (n.d.). *Lisan al-Arab*. Beirut: Dar Sader. [In Arabic].

Al-Jarjani, A. (n.d.). *Definitions Glossary*. Cairo: Dar al-Fadila. [In Arabic].

Nahle, M. (2002). *New Perspectives in Contemporary Linguistic Research*. Alexandria: Dar al-Maarefa al-Jamiiah. [In Arabic].

Rahmouti, Y. (2016). *The Novel I Saw Ramallah by Murid Barghouti, a Study in Light of Sociology of Literature*. Sharif Hidayatullah Islamic State University Jakarta, College of Arts and Humanities. [In Arabic].

Rakhshandeh Niya, A. (2018). The Dialectic of the Ego and the Other in the Novel I Saw Ramallah by Murid Al-Barghouti. *Al-Adab*, Issue 126, 436-457. [In Arabic].

Reboul, A., & Moeschler, J. (2003). *La pragmatique aujourd'hui: Une nouvelle science de la communication*. (S. Daghfous, & M. Al-Shaibani, Trans.) Beirut: Dar al-Taleea. [In Arabic].

Sahrawi, M. (2005). *Al-Tadawuliat Eind Eulama' al-Arab Tadawuliatan Lizahira al-Afeal al-Kilamia fi al-Turath al-Lisani al-Arabi*. Beirut: Dar al-Tale'ah. [In Arabic].

Al-Saliha, M. (2018). *Verbal Enhancements in the Novel I Saw Ramallah by Murid al-Barghouti (Rhetorical Study)*. Sunen Ambil Islamic State University Surabaya, College of Arts and Humanities. [In Arabic].

Al-Shehri, A. (2004). *Discourse Strategies: A Linguistic Approach*. New Books House. [In Arabic].

www.SID.ir